

مجد العرب والإسلام

للأستاذ اسماعيل مظهر



كانت رومية
قد لفظت آخر
أنفاسها عندما اقتلع
زعيم حربى من
الهمج الشبريرة
تاج الإمبراطورية
الرومانية من رأس
إمبراطور صبي
أيض الوجه ،
وضّاح الجبين ،
ليضعه فوق رأسه

الكث الشعر ، اللبّد القودين

أما الزمان فسنة ٤٧٦ بعد الميلاد . وأما المسرح فدرجات
قصر رايتنا الرخامية

كان الانحلال قد امتد إلى عظام رومية ينخرها منذ سنين ،
فأخذت صرّتها تضمف وقواها تتبدد شيئاً بعد شيء . أما آخر
مشهد من مشاهد هذه الأساة التي مثلها رومية على مسرح هذه
الدنيا ، فقد مرّ مرور الحلم ولم يابه له إنسان . وهناك انسدل
الستار على تلك المدينة القديمة وانطوت صفحاتها الخالدة . أما
المستقبل فكان طوع يعين تلك الشعوب الفتية القوية التي انحدرت
من الشمال

خرجت تلك الشعوب من خلال المفاوز الجبلية الثلجية ،
وانحدرت من هضاب الشمال الهاوية ، وشقت طريقها إلى الجنوب
حيث الأراضي الشامسة والحقول الخصبة . ولقد ركب بعضهم
متن اليباب على سفائن أشبه بالحيّتان الضخام ، وامتنى آخرون
عجلات من ذلك الصنف الذى يستخدمه البدو إذ يرعون أنعامهم .
ولقد اتخذوا في جوانب الطرق المرمرية التي أنشأها القياصرة
المعظم محاطاً بضرّون فيها نخاعهم ، وكان البحر المتوسط مرى

أنظارهم ؛ ذلك بأن رومية لم تجمع ثروتها الضخمة إلا من شطآنه
مضوا يهيمون في كل واد غاصبين مقاتلين ، فشرّوا الرعب
والفوضى في ربوع المدائن القيصرية ؛ وكانوا في جهالة ؛ فساء
نصرفهم ، وفسدت أعمالهم ؛ وقد تضى عليهم فترة ية رفون
فيها أشتاتاً ، ثم تنجدم موجات جديدة من الهمج أمثالهم هابطة
من الشمال أو من الشرق . ونسى القانون الرومانى فأصبح الحق
للأقوى ، واحتكمت تقاليد المشيرة البدائية في الجماهير ، تقاليد
أولئك الذين نشأهم صحراء غوبى المجذبة في جوف الصين

وظل العالم الخاف بالبحر المتوسط خمسة قرون ميداناً لتنتقل
تلك القبائل الهمجية ووحداها الحربية . على أنهم إن ظلوا أمناء
لتقاليد حياتهم البدائية ، واحتفظوا بروح المشيرة ، فإنهم في
خلال تلك الخمسة من السنين كانوا قد تقبلوا أنارة مما خلف العالم
الرومانى الإغريق من صور الثقافة

طوى رومية ظلام القرون ؛ فلما طواها خيم على أوروبا ظلام
الجهل والهمجية . ذلك الجهل وتلك الهمجية كانا طابع الشمال ،
فعملت رومية جاهدة في أن تصد طغياهما عن الجنوب قروناً
عديدة ؛ فلما لفظت رومية آخر أنفاسها ، استباح قوضى الشمال
حضارة الجنوب

وكانت الغابات المرطوبة على عهدا لم تنغير ، والخرائب المغبرة
الحزينة على سابق حالها مذكها اليوم وأخذت تسبح في أفئتها
وتنتقل في كرومها القديمة . ولقد ألقها الدباب الجارحة تمش
جماعات متعاونة على الصيد والاقتراس . أما الزارع فكانت رقماً
تنخل الأرض الحجرية ، حيث القرى بأكواخها المشيدة في
لبنت مَلّاطها الطين وسقوفها من البوص والمشم ، تقوم هناك
في سفح قصر منيف ذى أبراج ضخام لسيد من أسناد القطائع
أما الرعاة فكانوا ينامون في العراء ، وفي الوديان الخيفة
الموحنة ؛ ما يؤنسهم من شيء إلا المقترس من الحيوان والجوارح
من الطير . ذلك لأن مفاوز الغابات كانت مأهلهم الأمانة
ومرايهم الأصيلة

وهنا وهناك كنت تقع على ذلك التراب الأبيض السافى
تتخلله قطع من الأحجار ، إن نمت عن شيء فمن أن التراب

والأحجار إنما هي بقايا طريق روماني براه الزمان

بين الفينة والفينة كان يمر بذلك الطريق يهودى من بنى إسرائيل ومن ورائه شردمة من الخليل ؛ أو تاجر محيط به كتيبة من حملة الحراب ، وأقل ما يكون حدوثاً أن يثير غبار ذلك الطريق كتيبة لسيد من أسياد القطائع ، فإذا مرت اجتمع من حولها أهل الحقول ينظرون مأخوذين من رجال تلك الكتيبة الأشداء ، يؤخذون برأى الدروع السود المصفحة بالحديد ، والملاعق الكبيرة التي يفتش أطرافها الفراء

قل من أهل الريف من رأى أكثر من ذلك ؛ اللهم إلا أن يكونوا قد رأوا علامة الصليب الكبيرة التي تشير إلى التقاء الطرق وتفرعها في نهاية الوادى . أما ما وراء التلال فكان مجهولاً بل كان عدواً مخمياً . ولم يكن لهم اتصال بالعالم الخارجى عن عالمهم هذا ، اللهم إلا عن طريق الرهبان لا بسى المسوح ، أولئك الذين كانوا يجوبون الأنحاء حفاة من دير إلى دير ، أو عن طريق شاعر من مؤلفى الأغنيات ، يمر بمجلان إلى البهو ليتناول وجبة فاته أو أنها

ذلك بأن أهل أوروبا في عصور الظلام عاشوا مدفونين في وديانهم التي نشأتهم ولم يروا مما وراءها شيئاً . قال حراث من أهل ذلك العصر انحدرت إلينا كلمته : « إذا تنفس الصباح خرجت توأ أفود الثيران إلى الحقل ، ثم أضعها في المحراث ، لأن واجبي أن أحرت كل يوم حقلاً ، وإلى جانبي ولد لى أبح صوته البرد والسياح . فاذا فرغت من عملي ذاك ملأت المذاود بالدريس وسقيت النسم ثم أخرجت الروث . يا لله ! إن هذا العمل الرهق شاق ، ولكننى لست حرراً »

وكثيراً ما كان القحط يحط عليهم . فأيام ممطرة حين البذار ، أو فساد في المحصول ، أو سوس ينخر القمح ، أو جفاف أو حرب ، كل سبب من أولئك كان كافياً وحده أن ينشر الجوع والبلاء قيل : « كان الطباشير يطلب من الأرض وعجز بالذيق ليصنع خبزاً . لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم ، حتى لقد عجّزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جرّاً . وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون وبلقون في جوفها . وكادت هذ المصائب تلابسها مصائب أكبر وكوارث أعظم . فإن الدئاب

وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ، ملكتهم الشجاعة وأغواهم ضعف الناس ، فراحوا يهاجمون الأحياء . أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل ، لعل الحقول تزرع ولا تبور »

وقيل : « رأى رجل في سوق « تونير » حاملاً لحماً مطبوخاً ليبيعه في سوق المدينة . فلما سئل فيه ادعى أنه لحم حيوان . ولكن ذلك لم ينجه فسبق إلى السؤال ، وهناك لم ينكر جريمته فأحرق حياً . أما اللحم البشرى الذى أتى به الرجل فقد دفن باسم المدل والقانون . غير أن رجلاً غيره نبس ذلك اللحم وأكل منه ، فكان جزاؤه الموت إحراقاً »

وفي مثل تلك الفترات كان الطاعون من بلايا الأحياء . فأنهم كانوا يزحجون الأكوخ والساكر ، حتى أن أسراً برمتها كثيراً ما كانت تذهب فريسة ذلك المرض ، فيتركها الباقون ويهجرون المنازل والربوع فزعاً من الموت وفراراً من البلاء . وكان المرضى يحملون إلى الكنائس ابتغاء الشفاء ، فتنتشر العدوى في أولئك الذين أتوا ليؤدوا فريضة الصلاة عبادة خالصة لوجه الله

قال أردريكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « عمّ بلاء المرض فضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت الثيران الأرض ، خرج الأكترون هائمين على وجوههم . فلما رأوا أن الأبرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هرباً إلى حيث لا يملون »

هذه صورة مما كان في أوروبا الغربية ، لما انطلق صبح الزمان عن غلام يتيم من أبناء قريش ؛ فلما شب وترعرع ، ثم تفتى^(١) وكاد يكتهل نزل عليه الوحي ليبشر بدين جديد ، وليؤدى الرسالة الربانية للناس أجمعين ، وكانوا من الممجيبة على مثل ما رأيت في أوروبا ، يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويشدون البنات ويبعدون أسناناً كثيرة تبول الثعالب برؤوسها ، ويدينون بقوى سحرية ، ويؤمنون بظواهر الطبيعة كآلهة . غير أنهم بالرغم من هذا صدقوا وآمنوا بما أنزل إليهم . فإن صلاة محمد في نصرته الحق شذخت يافوخ الشرك الوثنية

ولقد كانت تلك الغزوات سبباً في أن يقف العرب ، وهم يحملون أرق الأديان وأجعد الدنيات ، وجهاً لوجه أمام أولئك المهجج الدين ثبتوا أقدامهم في خرائب الإمبراطورية الرومانية ، واعتنقوا دين عيسى فأصبحوا نصارى . ونجاورت قوات أو، ما وقوات آسيا . فان طلائع قوى النصارى كانت تلحظ عن كنب مقدمة معاقل الاسلام

أما في الغرب ، حيث شهدت الأندلس معارك أوربا والاسلام ، فان نصارى الفرنجة ، وقد انهزوا فرصة اضطرام نار الخلاف الموروث بين القبائل منذ الجاهلية ، كانوا قد استردوا مفاوز « البرنيز » ، ومضوا يتقدمون بتوذة ، مثبتين أقدامهم في شبه الجزيرة خطوة بعد أخرى . ذلك على الضد مما كان في الشرق . فان المسلمين كانوا قد تقدموا نحو أوربا مخترقين آسيا الصغرى

فيما بين هذين الطرفين : الأندلس غرباً ، وآسيا الصغرى شرقاً ، وفي وسط تلك الشقة ، كان للإسلام اليد العليا : في الأرض كما في البحر . ذلك بأن العرب قد ألقوا البحر بسهولة ، وشقوا عبايه مرحين . وابتنوا البوارج الفخام ، فتحولوا شيئاً بعد شيء من غزاة فاتحين بجد السيف ، إلى غزاة فاتحين بسلاح التجارة . ومن ثم ثبتوا أقدامهم في جزر البحر المتوسط ، وبخاصة صقلية ، وركبوا متن نهر « التير » حتى بلغوا جدران رومية ولم يمض غير قليل حتى أخذ العرب عن الشموب التي غزوها مبادئ الثقافة القديمة ، واخترقت قوافلهم تلك الصحارى الشاسعات من بلاد الهند إلى أسواق حلب والاسكندرية ؛ وازدانت قرطبة والقاهرة بالقصور الشاخمة ودور العلم الفخمة ، وحكم هارون الرشيد في بغداد

وهدأت الحالة واستقرت الأمور على امتداد التخوم . ذلك بأن المسلمين كانوا أحد ذكاء وأكثر معرفة وأعرق مدنية وأعظم قوة من جيرانهم همج النصارى

حوالى ذلك الزمن بدت في أوربا بوادر جديدة ، فان شارلمان ملك الفرنجة وحفيد شارل مارتل كان قد بدأ في تنفيذ خطته . فان متابفة الحرب والمنازى المتتالية ، واستئثار رجل واحد بالحكم كان سبباً في أن تتكون إمبراطورية لم يدم بقاؤها أكثر من

أدى محمد رسالته على خير ما تؤدي رسائل الوحي ، فلما قبض كان نور الإسلام قد انبج فاعتنق أكثر العرب ذلك الدين القيم وآمنوا بالقرآن وآيتهما : « أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »

وما لم يتح لنبي قريش أن يتم في حياته ، أتمه من بعده خلفاؤها العظام . فان رجال تلك الصحراء ، وعلى رؤوسهم خوذة الحرب ، قد امتطوا صهوات جباد قضيفة صغيرة الهجوم ، أو ظهور إبل عجاف ، وخرجوا من فضائهم الأرحب ليفزوا ويمنوا في الغزو ، تميزاً للإسلام ونشراً لكلمة الله . ولقد انقذت في جوامعهم نار الحمية فانتشروا في الأرض ومنوا في مناكبها ، وتنقلوا فيها من مكان إلى مكان ، بسرعة أقلقت أهل العالم القديم بدأت الغزوات في حكم الخلفاء الراشدين ، أصحاب محمد القرين منه . وفي أقل من قرن من الزمان رفعت راية الإسلام على الدنيا جميعاً من السند إلى جوف الصين ، ولعت سيوفه في مفاوز القوقاز وأغوارها ، وسقطت مصر في يد العرب ، وتبعها شمال أفريقية ، ثم الأندلس

ومنذ فاتحة تلك الغزوات طنى مداها العظيم على وديان أورشلين الصخرية فاكتسحها ، وأحاط الإسلام بهيكل المسيح . أما ظنيان الإسلام على أوربا جميعاً فلم يصدده في الظاهر غير عقبتين : شارل مارتل في الغرب ، وحصون بوزنطية في الشرق . أما السبب الحقيقي في وقوف ذلك المد الإسلامي العظيم عند ذلك الحد ، وهبوطه بعد أنه كاد يبلغ الدروة العليا ، فيرجع إلى أن أصحاب محمد قد انقسموا أحزاباً وتفرقوا شيئاً ، واختص كل حزب منهم بجزء من الأرض المنزوة . ولو أنهم ظلوا مجمين على كلمة الإسلام إذن لاندحر شارل مارتل ، وإذن لاندكت حصون بوزنطية ، وتحقق بذلك وعيد معاوية للإمبراطور الرومانى إذ قال له في كتاب أرسل به إليه لا علم بعزمه على غزو الشام إبان خلافه مع علي بن أبي طالب : « لئن تمت على ما بلغني لأصالحن ساحبي ، ولأكون على رأس طلائمه إليك ، ولأجعلن القسطنطينية الحراء سحامة سوداء ، ولأخلعنك عن عرشك خلع الإسطفليينة ، ولأرسلنك في الجبال ترعى الإبل » لو لم ينشق المسلمون لتحقق هذا : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم »

جيل واحد ، وفي أثناء ذلك أتجه شارلمان ونبله جيشه نحو الشرق ، ونصب أعينهم مدينة بوزنطية

أما الذين ارتنت عقولهم فقد اعتقدوا أن عمل شارلمان إنما هو بداية النظام وفاتحة حكم القانون ، ذلك بأن آخر حكومة منظمة كانوا يذكرون قيامها ، إنما هي حكومة الأباطورية الرومانية . ولذا اعتقدوا أنه ما من حاكم يصلح للحكم إلا عاهل قيصرى ، يملك زمام الأمر ويجمعه في يده . ولقد صحت نظرهم فان موت شارلمان كان سبباً في أن تتمزق تلك الأباطورية وتذهب ببدأ

بذهاب الأباطورية التي شيدها شارلمان عادت لأوروبا عصور الظلام . ففترقت الأمم وتنازعت الشعوب ، من غير أن تعرف أمة أو يبقه شعب للخلاص طريقاً . لقد اقتتلوا كما اقتتل أبائهم ، بشرامة الذئاب . وفيما هم على حالهم تلك ، ممزقة وحدتهم متفرقة كلتهم ، هبطت عليهم من الشمال عشائر من الهمج هم الدانيون والنورمان متمطين عباب الماء

برزوا إلى مسرح الحوادث العالمية ، وكانهم برزوا من أغوار البحار المحللة بالظلام والضباب ، متلهفين إلى أرض مشمسة خصبة ، هي أرض الجنوب ، وكانوا غير مدجنين ، يلبسون جلود الثعالب وإهاب الحيتان ، ومن فوقها الذهب اللامع ، وفي أيديهم سيوفهم الطويلة وحراهم السنونة وفؤوسهم الفليظة ، فخرّبوا ودمروا وأحرقوا ، واستقروا في النهاية حذاء الشواطئ

ظلام من فوقه ظلام ، من فوقه ظلام . وفي ذلك الوقت تخيل إنسان من طيبي النصارى خيالا ، واعتقد بأن نهاية العالم أي القيامة ستكون سنة ألف ، أى في اليوم الأخير من القرن العاشر الميلادى ، وارتقب الناس ذلك اليوم ، وأمضوا الليلة الأخيرة ساهرين ، يتوقعون النفخة في الصور ، ليهرعوا جميعاً إلى موقف الحساب ، ولكن ذكاء بزغت في نهاية الأفق صامته كعادتها ، منمشة كعهدا ، وظهرت الأرض لابسة حليتها المعروفة ، فلم يتغير بها من شيء

ظلام في العقيدة وظلام في الفكر وظلام في الحضارة . تلك كانت حال تلك البقعة التي نعرفها باسم أوروبا في أواخر القرن الحادى عشر المسيحي . فكيف كان العرب والاسلام ؟

في أواسط القرن التاسع الميلادى أى في عهد الخليفة المأمون العباسى ، عاش محمد بن موسى الذى ألف في علم الجبر وعنه أخذت أوروبا في أواسط القرن الرابع عشر ، فان مقاته في ذلك العلم قد ترجمت إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر في عصر النهضة العلمية في أوروبا . وعقب عليه محمد بن جابر البتاني المتوفى سنة ٩٢٩ ميلادية وهو صاحب الزيج المشهور المعروف باسم زيج الصابي ، وله عدا الزيج شروح على المجسطى وشرح مقالات بطليموس ومقالة في الفلك والجغرافية ؛ ويقول فيه المؤرخ أوليرى : « كان زيجه أنشط ما وجد من نوعه عند العرب ، وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة في علم الفلك عهداً طويلاً في القرون الوسطى وفي مدارس أوروبا على الأخص ؛ وكان يلقب ببطليموس العرب لثبات قدمه في علم الفلك وتضلعه فيه »

وفي حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية ، وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أمماؤم في صفحات التاريخ

قال أبو الفدا :

« قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء لبطليموس صاحب المجسطى وغيره ، فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوسمة على الأرض ستة وثلاثين ميلاً وثلاثين ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بأمره في بيرة سنجار واقتروا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذى اقتروا منه . وأخذت إحدى الفرقتين تسير نحو القطب الشمالى والأخرى نحو القطب الجنوبى ، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند الفترق وقابلوا على ما وجدوه فكان مع إحداها ستة وخمسون ميلاً وثلاث ميل ، ومع الأخرى ستة وخمسون ميلاً بلا كسر ، فأخذ بالأقل »

قيل : « واشتغل الرازى بالكيمياء واستكشف ما سماه « زيت الزاج » وهو الحامض الكبريتيك والكحول . استحضر الأول باستقطار كبريتات الحديد واسمه في العربية الزاج الأخضر

أرمنياس أي العبارة لأرسطوطاليس ؛ كما نقل تعليقات عن
 فرفوربوس الصوري والاسكندر الأفروديسي وأمونيوس
 وقيل : كان من عطاء المشاركة في عهدهم قسطاً بن لوقا
 وأبو بشر متى بن يونس ويحيى ابن عدي وابن ناعمة وثابت بن قرة
 وجابر بن حيان والقاراني وابن سينا والغزالي وغيرهم
 هذه أمانة مما كان في الشرق ، بل إشارة إلى بعض ما وصل
 إلينا من أخبارهم وما انحدر إلينا من أحوالهم بمد أن اتخذ
 هولاء كو من كتبهم قنطرة عبر عليها أحد الرافدين . ولك أن
 تقيس ما انبعث على يد العرب والإسلام من أنوار العلم والمدنية ،
 على ما بعث أهل أوروبا في ذلك العهد من ظلام على أهل الشمال

أما في الغرب — أي في بلاد الأندلس — فقد أرسل العرب
 على ذلك العالم الميت المظلم الذي نعرفه الآن باسم أوروبا أول شعاع
 من أشعة النور . وليس لنا أن نأتى من عندنا بكلام نبين به عن
 أثرهم في تحضير العالم الحديث بل نترك الكلام للأستاذ « درابر »
 في كتابه « نماء أوروبا العقلية ص ٣٠ ج ٢ » قال :

« لما ثبت قدم العرب في بلاد الأندلس ، بادروا إلى العمل
 على نشر العلم والحضارة ، وقد نقلوا معهم إلى الغرب جميع
 المبادئ التي قامت عليها حضارتهم في آسيا . وكان أول ما التفتوا
 إليه نشر المعرفة وتظليلها بحجياتهم . وقد ازدهرت في عهدهم المدن
 وأقرب مثال لها قرطبة ، فقد كانت تتألف من مائتي ألف بيت
 ويسكنها مليون من النسمات ، ويكفي أن تعرف أن شارعها
 الأكبر كان بطول عشرة أميال ويضاء ليلاً للمارة بمصابيح
 كبيرة ، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن
 إلا بعد ذلك العهد بسبعائة عام . وكانت طرقها مرصوفة بالأحجار
 في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس
 مبركاً للبياه والأوحال التي تقوص فيها الأرجل إلى الركب في
 فصل الشتاء . ولم يقتصر الأمر على قرطبة ، بل إن غرناطة
 وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تمد أشباهاً لقرطبة ونظائر . وكانت
 قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية ، بل كانت متاحف
 للفنون الرفيمة وعنواناً على حضارة عريقة ، في حين أن المنازل
 التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وإنجلترا لم تكن تفضل حظائر
 الماشية في شيء ، فهي بلا مداخن أو نوافذ ، وكان المخرج الوحيد

فلما استقره خرج منه سائل زيت الزاج . ولا تزال الطريقة
 التي اتبها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراج
 إلى اليوم . أما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشوية
 وسكرية مختمرة

وقيل : « أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بشداد
 سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م) وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى عناية
 يحيى بن عاصم الذي توفي سنة ٨٥٧م . وكان من المؤلفين في
 السريانية والعربية . أما مقالته في الحيات فقد كانت العمدة في
 دراسة تلك الأمراض زمناً طويلاً . وقد نقلت من بعد إلى
 اللاتينية والعبرية

ويستند المؤرخون أن أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة
 شأنًا ترجع إلى الجهود التي بذلها تلاميذ يحيى بن عاصم ومنهم
 الرجل الفذ أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة ٨٧٦م
 فقد نقل فضلاً عما نقل من المؤلفات الطبية ، جزءاً من منطق
 أرسطو (الأورغانون) وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل
 إلى الاسكندرية ، وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت
 شائعة في عهده متقناً للغة اليونانية التي استخدمها في النقل إلى
 السريانية والعربية

ثم قيل : واجتمع معه في بيت الحكمة ابنه إسحاق وابن
 أخته حبش الأعمى دمشقي . وترجم حنين إلى العربية مقالات
 إقليدس وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخيدس
 وإبولونيوس الفرغايوسي ، وهو أكبر من اشتغل بالهندسة في
 العالم اليوناني بعد إقليدس . ولقد ترجم أبو زيد عن غير هؤلاء
 كما ترجم الجمهورية ، وكتاب طباموس لأفلاطون وقاطيغوريوس
 والموسيقا والماغتا موراليا أي الأخلاق الكبير عن أرسطوطاليس
 وتعليقات طيموستيوس على المقالة الثلاثين من الفيزيقا . كذلك
 ترجم كتاب أرسطوطاليس في المعادن ، وهو كتاب ظلّ زماناً
 طويلاً مرجعاً من أهم المراجع في درس الكيمياء ، وعن أصله
 اليوناني أخذ بولس الأجانيطي

ومما انحدر إلينا من أبحاثهم أن إسحاق بن حنين قد ترجم
 إلى العربية — فضلاً عن الطب — كتباً من أشهر ما حوت
 حكمة الأقدمين ؛ منها السوفسطائي لأفلاطون ، والميتافيزيقا
 والروح (ده أينا) والكون والفساد ، وإرمانوطيقا ، أو ياري

من حرسنا العلي

تعمري في الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزاءي ويميد بنائي ، « طبقاً لشروط أخرى ومواصفات جديدة » كما يقال في لغة أهل العمارة والمهندسة ؛ ولكن ... سرعان ما أذكر كلمة « باسكال » : « لو أن أنف كايوبابرا كان أكبر قليلاً عما كان لتغير وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدري . لعل قائلاً يقول في أمرى غداً : « لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربي الحديث » . ولكن الواقع الذي أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير . قليل من « السلامكي » على قليل من الشمر والبنسون ينتج « مليناً » للأعضاء . كذلك حياة كيميائي مع قليل من ميولي وقليل من مطالعاتي ... ينتج أدباً كادبي ... فكيف إذن يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة كل التغيير . وما الذي يحمله على ذلك ، إلا رغبتى ؟ ومتى كنا مخلوق طبقاً لرغباتنا ؟ لقد قرأت يوماً كلمة عنى في إحدى الصحف قيل فيها : « إنى أريد أن أعيش لفى ، ولفنى فقط » . فابتسمت وقلت : « أنا أريد ؟ » كلمة أريد « تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم في حضرة « القدر » ! ما أنا إلا تركيب كيميائي مثل ذلك الملين ، « لا بدله » بهذه العناصر مجتمعة « أن ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن » أو « الأدب » . لافرق في نظر « الطبيعة » بين « النحلة » و « الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار ، لينتج عسلاً آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع أحدها بناء فصيلته ، ويقوم الآخر ببناء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدتاً عندها رأياً ولا إرادة . إنما هي تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع إلى التفكير والانتاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت مأثراً : « لماذا ولن أقتل نفسى بهذا العمل المغنى ؟ » . فأسمع الجواب من أعماقى : « إنك لا تنتج لشيء ولا لأحد ، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت . ترفيق الحكيم

الذى ينسلم إلى فضاء الجوكوة في أعلى السقف يتصرف منها الدخان »

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال ؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنايب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة ، وأن الماء كان يجرى دائماً في أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً في أثناء الصيف ، وأن جهازيات التهوية الصناعية كانت في الأشياء التى اخترعها العرب في فن البناء واستخدمت لأول مرة في قصور الأندلس ؟ قيل إن من المفاخر التى كان يزعم بها أصحاب القصور ما نحوى من المكتبات النادرة . ويكنى أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها في فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالى . كانت واجهته مقامة على ١٢٠٠ عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم التمددين : من اليونان وإيطاليا وأفريقية ؛ وكان البهو الأكبر منسجى بالذهب الخالص ؛ وكان بالقصر ٦٣٠٠ من الحاشية والخدم ، ومن حوله تكنت بها ١٢٠٠٠ من الحراس لباسهم من الحرير ومعاظفهم مطرزة بالذهب

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التى أصبحت بعد زمان النور الذى استهدى به العقل الأوروبى وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوروبا الحديثة .

ثم نمنا واستيقظ الزمان ، ورحنا في سبات وعجبة الدهر من حولنا تدور ، حتى أصبحنا ولسان حالنا بقول مع شاعرنا حافظ : لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا إلا بقية دمع في ما قينا كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت وفى يمين الملا كنا رياحيننا كانت منازلنا بالعرش شاذجة لا تطلع الشمس إلا في مغائنا والشهب لو أنها كانت مسخرة لرحم من كان يبدو من أعادينا فلم نزل وصرور الدهر ترمقنا شزراً ونخدعنا الدنيا وتلهينا حتى غدونا ولا مال ولا نسب ولا صديق ولا خل يواسينا هذا طرف من مجد العرب والاسلام وصورة تذكرنا أننا كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة . فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا التكريات اسماعيل مطهر